

فعل الترجمة والتواصل الثقافي

The act of translation and cultural communication

د. أحمد مارييف *

¹ جامعة محمد خيضر - بسكرة (الجزائر)، ahmed.marif@univ-biskra.dz

تاريخ النشر: 2026/06/12

تاريخ القبول: 2026/05/20

تاريخ الاستلام: 2026/04/01

ملخص:

تعتبر الترجمة بمثابة الجسر الذي تعبر من خلاله الثقافات إلى باقي المجتمعات، فقد لعبت ولا تزال تلعب دورا كبيرا في خلق التواصل بين مختلف الآداب والمعارف والعلوم ساعية إلى إيجاد مشترك ثقافي عالمي بين شتى الحضارات. كما أنها تمثل دعامة أساسية لمختلف النهضات الفكرية والثقافية لأي حضارة، وفي أي عصر، وبهذا كانت بمثابة الوسيلة المفضلة للتعرف على ما عند الآخرين من تقنيات وأفكار، وأيضا لتعريف الآخرين على ما لدينا من علوم ومعارف وثقافة، باعتبار الثقافة عملية تقوم على الأخذ والعطاء. وفي هذا السياق تسعى هذه الورقة إلى البحث عن مساهمة الترجمة ودورها في خلق جو المثاقفة والحوار بين الحضارات والثقافات، محاولين من خلالها أن نبين أن الترجمة هي وسيلة لتحقيق التواصل الحواري الحضاري.

كلمات مفتاحية: الترجمة؛ التواصل الثقافي؛ المثاقفة؛ الحوار؛ التواصل الحضاري.

Abstract:

Translation has been and still is a bridge through which cultures cross to other societies. It has played and continues to play a major role in creating communication between different literatures, knowledge and sciences, seeking to find a common global culture among various civilizations. It also represents a fundamental pillar for various intellectual and cultural renaissances of any civilization, in any era. Thus, translation was the preferred means to learn about the useful techniques and ideas of others, and also, in return, to introduce others to our sciences, knowledge and culture, since culture is give and take. This paper seeks to answer and search for the contribution of translation in creating an atmosphere of acculturation and the language of dialogue between civilizations and cultures,

* المؤلف المرسل: د. أحمد مارييف

trying to show that translation is a means of dialogue between cultures, highlighting its ability to create this civilizational dialogical communication.

Keywords: Translation; cultural communication; acculturation; dialogue; civilizational communication.

1. مقدمة:

مما يتكرر أنّ الترجمة ثقافية، وأنها نشاط معرفي عريق ساهم بشكل كبير في صياغة التاريخ الثقافي للبشرية، فبفضلها انتقلت المعارف والعلوم بين الأمم وتأسست روابط التواصل الإنساني والحضاري، فكانت بمثابة الجسر الذي تعبر من خلاله الثقافات إلى باقي المجتمعات، وسعى المترجمون لإيجاد مشترك ثقافي عالمي بين مختلف الحضارات والأمم. ومن خلال الترجمة بدأت النهضة الثقافية في عصر الإسلام، وبواسطتها أيضاً انتقلت مختلف الثقافات العالمية إلى العالم الإسلامي، كما أن أوروبا في القرن الخامس عشر أي في عصر النهضة شهدت حركة ترجمة مزدهرة من العربية إلى اللاتينية وهذا عن طريق نقل وترجمة الكتب المختلفة من شعر وفلك ورياضيات وغيرها من العلوم... وبهذا غدت الترجمة وسيلة مفضلة للتعرف على تقنيات وأفكار الآخر، وفي المقابل لتعريفه بما نمتلكه من علوم ومعارف وفنون، من هنا تكون الترجمة فعل ثقافي وإيديولوجي يتقاطع مع مفاهيم المعرفة والسلطة والتاريخ، فاختيار النصوص التي تترجم والمفردات واستراتيجيات الترجمة كلها عمليات تعكس تمثلاً معيناً للذات وللآخر، لذلك تعدّ الترجمة ممارسة ثقافية تمكّن دراستها من فهم العلاقات الثقافية بين الحضارات عبر التاريخ.

وللبحث في طبيعة هذا التداخل وهذه العلاقة بين الذات والآخر تمحورت إشكالية بحثنا كالاتي: ما مدى إسهام الترجمة في تحقيق وتعزيز التواصل الثقافي بين مختلف الثقافات والشعوب؟

وقد تفرعت عن هذه الإشكالية مجموعة من الفرضيات أهمها: كيف يسهم فعل الترجمة في تقريب الشعوب من بعضها البعض والتعريف بالآخرين أن تتركس لأحادية الآخر اللغوية والفكرية والدينية؟ وكيف يمكن للترجمة أن تكون أداة للتواصل الحضاري دون أن تؤدي إلى ذوبان الهوية؟

انطلاقاً من الإشكالية المحورية والفرضيات المشار إليها ستسعى هذه الورقة البحثية إلى محاولة الإجابة والبحث عن مساهمة الترجمة في إحداث فعل المثقافة وتحقيق لغة الحوار بين الحضارات والثقافات، والبحث في قدرتها على خلق التواصل والحوار وتحقيق التفاعل الحضاري.

2. الترجمة باعتبارها جسر تواصل بين الذات والآخر:

شكلت الترجمة منذ زمن بعيد حلقة للحوار والتواصل بين مختلف الحضارات والثقافات لأنها نشاط إنساني يعمل على تبادل المعارف والخبرات والترويج لمختلف الثقافات، فهي فهم وإفهام وتعبير عن عملية تواصل مزدوج يكون فيها المترجم متلقٍ في لغة، ومتكلم في لغة أخرى، وهي "شرح وتفسير ما يقوله ويكتبه الآخر من لغة أخرى إلى لغة المتلقي أو المستمع" (العيسي، 1999، صفحة 7) وعليه يبدو أن الهدف الأساسي لكل ترجمة هو إقامة علاقة مع الآخر المختلف والغريب عنا، والقيام بعملية إخصاب للثقافة الخاصة بكل مجتمع وبكل طرف عبر عملية تلاقح بين الثقافتين، ولأجل تحقيق هذا المطلب يجب أن تكف كل ثقافة عن اعتبار نفسها هي الثقافة المسيطرة وأن لا تسعى إلى بسط شعاعها المطلق وسيطرتها على الثقافة الأخرى، فأساس أي ترجمة هو إقامة علاقة تبادلية بين الذات والآخر علاقة مبنية على أساس التواصل والاحترام والتكافؤ كما ونوعاً بين ما ينقل إلى لغتنا وبين ما ينقل منها، والترجمة هنا هي التي تنقل المضامين المعرفية من لغة إلى أخرى.

فقد قامت الترجمة لدى مختلف الشعوب بدور أساسي وجوهري حيث أنها كانت ملازمة لتاريخ الإنسان، لأن تعدد الشعوب والأقوام واختلاف اللغات التي برزت نتيجة المناخ والبيئة والغذاء والتناسل، أسهم في الحضارة الإنسانية وجعل ظاهرة الترجمة الأداة الوحيدة لسد حاجة التواصل بين البشر فرادى وجماعات وفي كل أنواع التبادل" (العيسي، 1999، صفحة 8) وبهذا فإن الترجمة تعتبر اليوم من أهم روافد الثقافة التي تسهم في تلاحقها وتقاربها.

والحاجة إليها تنشأ من الحاجة إلى التواصل فهي حوار عبر اللغة بين الثقافات والشعوب، لكن يجب الإشارة كما يؤكد على ذلك محمد عابد الجابري أن هذه الثقافات تتداخل وتتجاوز وتتنافس أحياناً، "أما أن نطمح إلى ثقافة واحدة فهذا خطأ، وهو ما يمارسه دعاة العولمة اليوم" (حاج عبد الرحمن وريحاني، د.س، صفحة 64) ولن يكون هذا التقارب والتلاحق بين الثقافات إلا من خلال الترجمة التي هي بمثابة النافذة التي نتعرف من خلالها على مختلف الثقافات، فهي من أهم روافد التواصل الثقافي حيث "تستدعي عملية الترجمة تفاهما ثقافيا متبادلا لا يتجاوز الأحكام المسبقة المتداولة" (الخطابي، 2010، صفحة 105).

"فالترجمة ليست نقلا لكيفية التعبير، بل هي نقل لقصد التعبير من خلال المناظرة الممكنة بين كفايات تعبيرية مختلفة بالضرورة بين اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها" (المرزوقي، 2001، صفحة 24) وهنا يجب الإشارة إلى أن الترجمة ليست مقصورة فقط على نقل المضمون المعرفي، بل هي أحد أدوات التكيف العضوي لنوع من الحيوان هو الإنسان "التكيف الذي ييسر الاستفادة من تجارب الآخرين" (المرزوقي، 2001، صفحة 75) ولا يمكن الاستفادة من الآخر إلا عبر التواصل معه وفهم لغته، ولا يتحقق ذلك دون الاستعانة بالمترجم، إذ يمثل وسيطا ضروريا لفهم اللغة والثقافة معا، يعني مشاركة المخيال الفردي لمخيل الآخر وثقافته ولغته.

هذا المعنى تكون الترجمة ليست نقلا حرفيا للنصوص، بل تصير عملية ثقافية تستلزم فهما للسياقات وللمخيال الثقافي، فلا يقتصر دورها على النقل المعرفي فحسب، بل تصير وسيلة لتحقيق التفاعل الإبداعي وبناء الفهم المتبادل "باعتبار أن الترجمة هي التي تنقل المضامين المعرفية من لغة إلى أخرى...ولكي يكون التفاعل الثقافي مع الآخر فاعلا ينبغي أن نعرف الذات بالإضافة إلى معرفتنا الآخر" (القاسم، 2010/2011)

3. مخاطر الترجمة وقيمتها:

"ليست الترجمة تقنية لغوية فحسب، وإنما هي أيضا فعل إبداعي، ونشاط لغوي، وضرورة حضارية، وموقف أيديولوجي" (عبيد، 2010/2011) وقد تكون الترجمة محاكاة لأعمال وإبداعات الثقافات الأخرى ومسايرة لنمطها وثقافتها وفلسفتها وفكرها، وهذا ما قد يشكل خطرا على عبقرية الإبداع، حيث أن الترجمة يمكنها أيضا أن تحول الأمة إلى أمة تقتات على إبداع غيرها من حيث مضامين المعرفة بحجة اختصار الوقت والتعلم من الآخرين، ويتجلى ذلك خصوصا في المجالين العلمي والتقني في عالمنا العربي، وهنا يجب أن نعترف أن "أغلب ما ينتشر في الأسواق من ترجماتنا مسيء للثقافة التي ننقلها ولثقافتنا، في آن واحد، قيل الكثير عن سوء الترجمة باعتبارها تشويه لما ينقل إلى العربية، ولكن لم يُقل من أن تشويه ما ينقل يشوّه ما ينقل إليه أيضا، هكذا يكون بعض الترجمة مساهمة في التخلّف الثقافي" (ليب، 2010/2011)

كما أن هناك خطرا آخر للترجمة يتمثل في البعد اللغوي للترجمة قد تؤدي إلى فقدان الكثير من الأفراد لارتباطهم بلغتهم الأم أو دمج لغتهم مع لغة أخرى جديدة ونحن نعلم أهمية اللغة في المحافظة على الهوية الاجتماعية والثقافية لأي مجتمع أو جماعة، وهذا ما قد يكرس التبعية خاصة إذا لم يكن المترجمين مدركين لأهمية المحافظة على اللسان المنقول إليه في عملية ترجمتهم لمختلف الآداب والعلوم واللغات، من هنا يجب على المتلقي أن يكون مدركا لكيفية تعامله مع ثقافة الآخر، لأن "انفتاح الحدود بين المجتمعات سمح بإثراء ثقافي

متبادل، ولكنه قاد في الوقت نفسه أيضاً إلى انطواءات الهوية" (قاسم، 2010-2011) وهذا ما جعل مشكل الاستفادة من الترجمة يطرح من جديد.

وبالتالي من أبرز مخاطر الترجمة نجد التبعية اللغوية، خاصة حين تصبح اللغة الأجنبية مهيمنة على اللغة الأم، هذه السيطرة غالباً تتمثل تهديدا للهوية الثقافية والاجتماعية، لهذا يشدد برمان على ضرورة وعي المترجم بالبعد الأخلاقي والثقافي للترجمة وضرورة احترامه لخصوصية اللغة التي يترجم إليها.

فنحن من خلال فعل الترجمة نتعرف على أعمال الآخر الأدبية والفلسفية والعلمية... وبالتالي يمكننا التعرف على مختلف إبداعاته الفكرية والثقافية، وبفضلها استطعنا التعرف على الكتابات الهندية القديمة، كما وصلت إلينا كتب اليونان وآداب الفرس، ونقلت المدونات والكتب من أمة إلى أمة ومن لسان إلى لسان فساهمت في ثقافت الشعوب وتواصلها. وهكذا كانت الترجمة انفتاحاً وإنصافاً وتجاوزاً وتفاعلاً مع الآخر المختلف لغوياً وتاريخياً وفكرياً وثقافياً، وبهذا ساهمت في تغذية الثقافات وتقاربها وامتزاجها أحياناً كثيرة والتعريف بها أحياناً أخرى، لكن هذا لا يلغي وجود ترجمات متمركزة حول الذات، أي ذات طابع ذاتي عرقي كما يصفها برمان، أو ما يعرف بالتمركز العرقي الذي يعني "إرجاع كل شيء إلى الثقافة الخاصة بالمترجم وإلى معاييرها وقيمها واعتبار الخارج عن إطار هذه الأخيرة أي الغريب سلبياً، يتعين أن يكون ملحقاً ومهيئاً للمساهمة في إغناء هذه الثقافة" (برمان، 2010، الصفحات 47-48)، لكن رغم هذا نجد برمان يعترف أن المترجم لا يمكنه أن يتحرر من نزعتة العرقية أو نزعتة المتمركزة حول بنيته العرقية والمميزة لثقافته ولغته.

غير أن للترجمة دوراً إيجابياً يتمثل في خلخلة البنى العرقية المغلقة داخل الثقافات، وهي البنى المتمركزة عرقياً داخل أي ثقافة من الثقافات أو مجتمع من المجتمعات، فتتيح بهذا الانفتاح على الآخر ومحاولة فهمه ومحاولة أن تسهم في إقامة علاقة تبادلية بين الذات

والآخر، وهي علاقة قائمة في أصلها على الاعتراف بالاختلاف، وهنا يبرز هدف الترجمة الأخلاقي الذي يتناقض مع الهدف الاختزالي للثقافة التي تحاول أن تتمركز حول ذاتها، وهذا الفعل الأخلاقي المتمثل في الاعتراف بالآخر وتقبله يؤكد أنّ "الترجمة تنتمي في الأصل إلى البعد الأخلاقي لأن غايتها أخلاقية، فهي ترغب عبر ماهيتها ذاتها في جعل الغريب منفتحاً كغريب على فضائه اللساني الخاص" (برمان، 2010، صفحة 103) فهي تنقل لنا ثقافة جديدة وتجعلها تتكلم في اللسان المستقبل لها، أي جعل الغريب منفتحاً وهذا الانفتاح يتجاوز التواصل فهو بمثابة كشف وتجلّ "وعادة ما يقال أن الترجمة هي تواصل التواصل لكنها أكثر من ذلك فهي تجلي للتجلي" (برمان، 2010، صفحة 103) وهذا التجلي يكون غالباً في الأعمال الإبداعية من فن ورسم ونحت، "فمن المعروف أن التجارة والحرب والمثاقفة سيرورات تتم بين جماعات بشرية متتالية متعددة اللغات والخلفيات الاجتماعية مما يولد حاجة ماسة إلى الترجمة. فالأعمال التجارية تتم في الغالب عبر مترجمين يتقنون لغتي طرفي التبادل كما يجري توثيق الصفات وتثبيتها بعقود مكتوبة بلغتين على الأقل" (جتكر، 2010، صفحة 55) وعليه تبقى الحاجة إلى الترجمة في ازدياد مستمر ودائم وهذا بسبب التطور الواسع الذي تشهده المعارف وانفتاح الشعوب على ثقافات وحضارات بعضها البعض، إضافة إلى أن العالم أصبح اليوم في شكل قرية صغيرة وهو ما يحتم ضرورة الاعتماد على فهم لغة الآخر لأنه أصبح قريباً منا بل ومجاوراً لنا فلم تعد هناك حدود نمنع أو تعيق إمكانية التواصل مع الآخر الذي قد يكون بعيداً عنا جغرافياً.

وتشير المصادر التاريخية إلى أنّ دور المترجم كان مركزياً في الحضارات القديمة، وكان المترجمون موجودون منذ آلاف السنين في هذه الحضارات مثل الحضارة المصرية والآشورية والبابلية، وكذلك في الحضارة الإسلامية التي شهدت فيها الترجمة ازدهاراً واسعاً خاصة في العصر العباسي مع ظهور بيت الحكمة، حيث يقول لطيف زيتوني "التاريخ قد حفظ لنا نص معاهدة معقودة بين الحوثيين والمصريين باللغتين المصرية والحوثية... بلاط الفراعنة كان

فيه مترجمون محترفون يتوارثون العمل جيلا وراء جيل ويحتلون مرتبة الإمارة، ولعل هذا يذكرنا بأدوار المترجمين في بلاط سلاطين بني عثمان الذين كانوا يصلون إلى مراتب رفيعة في الدولة مثل وزارة الخارجية والصدارة العظمى في الكثير من الأحيان (جتكر، 2010، صفحة 60) وعليه فإن الاتصال بين البشر يبقى متعذرا وصعب المنال ما لم يتم ترجمة المعرفة وتبادلها لأن الاتصال هو أحد الشروط والمميزات الإنسانية الذي يؤسس لتقارب الثقافات والحضارات والمجتمعات.

4. أهمية الترجمة من اللغة العربية الى اللغات الأخرى:

الملاحظ اليوم أن الثقافة العربية تعاني من نقص وضعف في انتشارها على المستوى العالمي مقارنة بالكم الهائل من الترجمات التي تستقبلها، فنلاحظ أن حضور الأعمال العربية في اللغات العالمية لا يزال محدودا، وهذا رغم غنى التراث العربي الذي يتميز بالتنوع والكثرة من حيث الجانب المعرفي والتاريخي، حيث نجد أن الترجمة من الثقافات واللغات المختلفة الى اللغة العربية منتشرة بكثرة عكس الترجمة من العربية إلى غيرها من اللغات الأجنبية خاصة في الزمن المعاصر وهذا ربما نظرا لعدم انتقال ثقافتنا إلى الآخر بصورة واضحة وجليّة، فالترجمة أداة إنسانية هائلة دورها الرئيسي يتمثل في خدمة التواصل الإنساني، فتخيل انه لا يوجد هذا السياق من الأفق الحضاري الذي تتبادل به الأمم ثقافتها لأصبحت الأمم جزر متقطعة لا اتصال بينها، لكن الترجمة حققت هذه الجسور التي قرّبت بين الأمم والشعوب وأغنت بعضها ببعض وحققت هذه السمة الإنسانية في أن الثقافة هي تحاور وتبادل للرؤى والأفكار والمواقف لكن ما ينقصنا اليوم حقيقة وما ينقص الثقافة العربية هو أن يتم ترحيل عطائنا المعرفي والثقافي والحضاري إلى لغات أخرى وهذا ما نعاني منه كثيرا، فنجاح أي ثقافة في الانفتاح العالمي رهين بالقدرة على ترجمة إنتاجها العلمي والأدبي إلى اللغات الأجنبية، وفي هذا نستحضر جهود حنين بن إسحاق وثابت بن قرة وهي الجهود التي تعتبر أمثلة رائدة في التاريخ الإسلامي لنقل المعرفة بدقة ومنجية والانفتاح على الآخر، من هنا تأتي الحاجة إلى

نقل أعمالنا للآخر، إلا أنّ أعمالنا هي الأقل نقلاً مقارنة مع الأعمال المنقولة إلينا وهذا رغم ثراء لغتنا وثقافتنا.

فالترجمة هي "أحد أهم أركان وسائط التواصل الحضاري وعلى المتلقي اختيار ما يلائمه من معروض الفكر التواصلـي من الحضارات والأمم، واللغات المختلفة" (فيدوح، 2009، صفحة 117) وتكمل أهمية وقيمة التواصل في جلب ثقافة أو أدب أو معرفة خارج البيئة اللغوية أو الثقافة المحلية وتقريب بيئة أخرى إلى البيئة المنقول إليها، "فلا أحد ينكر أن سبيل تحقيق القوة وتمكين الرقي نابعان من استيعاب ثقافة الآخر، ولعل خير مثال لتوضيح مكانة ربط التواصل الثقافي بين الأمم والثقافات هو ما قامت به الثقافة العربية الإسلامية التي قبلت مبدأ التوافق مع الآخر في مهد نشأتها من خلال ترجمات وشروحات كتب اليونان، خاصة الدور الذي قام به قدماءنا أمثال الفارابي وابن سينا، بنقل الفكر الأرسطي واليوناني بوجه عام وتوطينه في الثقافة العربية الإسلامية" (فيدوح، 2009، صفحة 117) حيث ظهرت الكثير من المدارس والمترجمين أمثال "حنين ابن إسحاق" (وهو أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي ولد عام 809م وتوفي عام 875م) الذي اهتم "بإرساء قواعد علمية ثابتة يمكن بفضلها أن ينتقل العمل العلمي إلى الآخرين، وكان يراجع دائما ترجماته السابقة ليقدم ترجمة أشد دقة، وكان يحترم النص الأصلي من حيث المضمون، وفي كثير من الأحيان كان يلتزم بالشكل" (حربي، 2010/2011، صفحة 57) وقد كان حنين يراجع دائما ترجماته السابقة ليقدم ترجمة أكثر دقة، زد على مدرسة حنين ابن إسحاق مدرسة أخرى ألا وهي مدرسة ثابت بن قرة (وهو أبو الحسن ثابت بن قرة بن ثابت الحراني الصائبي، 385 م – 900 م) "باعتبارها حلقة معرفية مهمة من حلقات تاريخ العلم عند العرب، إذ وضعت أمام المؤلفين العرب في الرياضيات ما ترجمته من رياضيات الأمم الأخرى" (حربي، 2010/2011، صفحة 59) فلو لا حركة الترجمة ما كان لنا أن نتعرف على أعمال أرسطو وغيره من الأعمال المترجمة.

وكان للفتوحات الإسلامية دور كبير في مد جسور التواصل بين الثقافات وربط الصلة مع ثقافات أخرى مثل الثقافة الفارسية أو الرومانية، وكل هذا بفضل دور الترجمة التي كانت المحك الأساس لتقريب الصلة بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات وقد كان للخليفة المأمون كما أشرنا سابقا دور كبير في ازدهار حركة الترجمة خاصة من خلال تأسيسه "بيت الحكمة" الذي أوكل مهمة رئاسته لحنين ابن إسحاق حيث جمع حنين حوله فريقا ممتازا من المترجمين، "وكان العمل في بيت الحكمة برئاسته يجري على قدم وساق وساد بين المترجمين المشتغلين فيه من نصارى وسريان وفرس وغيرهم أخلاقيات العلماء من حب وتقدير وتسامح... ولم تعرف هذه المؤسسة صور التعصب لجنس معين أو دين معين" (حربي، 2010/2011، صفحة 58) حيث تروي الدراسات التاريخية أن المأمون كان يدفع ثمن كل كتاب مُترجم ما يعادل وزنه ذهباً، فأعطى كل الصلاحيات المطلقة لتنفيذ مشروع الترجمة في شتى المجالات والعلوم. كما أن الترجمة أسهمت كثيراً في مسيرة الفكر الغربي الحديث خاصة من خلال نقل مختلف نصوصه إلى مختلف اللغات، وهذان نموذجان من "مدارس الترجمة التي شهدها المجتمع العربي الإسلامي خلال نهضته العلمية، فكانت بمثابة جسر عبور للمسلمين إلى علوم الآخر ومعارفه، الذي ساعد على التطور والإبداع في بنية العلوم الإسلامية". (حربي، 2010/2011، صفحة 51)

وفي عصر العولمة تزداد الحاجة إلى دعم مشاريع الترجمة من اللغة العربية إلى غيرها من اللغات، وهذا ليس فقط من أجل التعريف باللغة العربية وبالحضارة العربية، ولكن لأجل المشاركة في صناعة المعرفة العالمية.

وقد بلغ الأمر مع توما الإكويني في القرن الثالث عشر أن ردد قولاً شائعاً بأن هناك شعبين فقط يستطيعان التفلسف هما اليوناني والعربي، فمن المهم أن نلاحظ أن الحضارة العربية تفوقت كثيراً على كل الحضارة اللاتينية الرومانية خاصة من خلال أعمال الترجمة من اليونانية إلى العربية حيث نجد أن كل الطاقات العربية الإسلامية تفجرت في العصر

الوسيط وأنتجت نوعا من العولمة الثقافية العلمية التي لا تريد الهيمنة الميدانية بل تسيطر بقوتها المعنوية على القلوب والعقول. هذه الحضارة العربية لم تكن حضارة الآخر مكتوبة بأحرف عربية (زيناتي، 2012/2011) فلعبت دورا بارزا في تشكيل الوعي العلمي والثقافي العالمي، والسوربون حين أسس في باريس في القرن الثالث عشر لم يكن عنده مادة يدرّسها كبار الأساتذة مثل ألبرتوس الكبير وتوما الإكويني سوى ما قد نقل إلى لغتهم اللاتينية من اللغة العربية مع كل الإضافات التي سطرّتها عبقرية كبار المفكرين العرب والمسلمين، حتى أننا نستطيع أن نقول بدون أدنى مبالغة أنه لو لا التراث العربي واليوناني الذي شرحه ابن سينا والشارح الأكبر ابن رشد لكانت الجامعة في باريس رددت ما كان متداولاً في السابق... (زيناتي، واقع الترجمة العربية وأداؤها، 2012/2011) نحن هنا نتكلم عما جرى في الماضي وعن الدور الذي لعبته الترجمة العربية في تنوير عقول الشعوب الأخرى، فساهمت بهذا الترجمة العربية في الإسراع من تطور العلوم وفتح آفاق جديدة ثقافية وعلمية وحضارية ضخمة.

5. الترجمة وإلغاء الاختلاف الثقافي:

تلعب الترجمة دورا أساسيا في تقريب الثقافات وتحقيق التقارب بين مختلف الشعوب والأجناس والثقافات، شرط أن تمارس بوعي يحترم خصوصية الآخر، إذ تؤكد سوزان باسنيث أن الترجمة ليست عملية تقنية بل هي تأويل وتأثر وتأثير، وكل ترجمة "تتجاهل خصوصية الآخر بكل مقوماته المعرفية والثقافية لن تجدي نفعاً، وإهمال هذا البعد هو إهمال للحقيقة المطلقة لبناء الذات على اعتبار أن مقومات الذات مرهونة بمعرفة الآخر، ومهما زعم المرء لنفسه أنه متكامل معرفيا وحضاريا فإنه لا بد أن يجد نفسه مضطرا إلى الآخر في مكوناته الحضارية بوصفها حلقة اتصال وتبادل وتفاعل في الثقافات، ولن يكون ذلك إلا بواقع الاحتكاك بالآخر عبر آلة الترجمة" (حربي، 2011/2010، صفحة 77) ويرى

ماتن هايدغر أن فعل الترجمة هو الكفيل بجعل الفكر ينفتح على روح لغة أخرى، وهذا التحول ليس تهديدا للهوية بل هو زيادة فيها وإثراء لها.

ومن خلال الاحتكاك بالآخر نقوم بالإفادة من إيجابيات ثقافتة لأنه كثيرا ما نجد لدى الآخر مؤثرات تدفع بنا إلى التطور، وفي حال إجراء هذا التبادل الثقافي بين ثقافة وأخرى أو بين ذات وأخرى فإن الترجمة تكون قد أدت دورها لأن غايتها بناء معرفة ثقافية تسعى إلى التطلع والاستشراق.

وفي هذا السياق نستحضر القول الهايدغري التالي: "بفعل الترجمة يجد عمل الفكر نفسه وقد تَمَّص روح لغة أخرى، وبذلك فهو يتعرض إلى تحول لا محيد عنه، إلا أن هذا التحول قد يغدو خصبا لأنه يبرز الطرح الأساسي للسؤال على ضوء نور جديد" (إبراهيم، 2009، صفحة 32) ليؤكد أن أزهى عصور الفكر لا بد أن يقترن بازدهار حركة الترجمة.

ذلك أن الترجمة ليست أبدا علامة على التبعية، كما أنها ليست قهرا للآخر ولا ارتقاء في أحضانه، بل هي "تجول وتجدد و ترحال وانفتاح وتلاقح وتكاثر وحياة" (إبراهيم، 2009، صفحة 32) والترجمة الناجحة هي التي تستطيع أن تلغي الاختلاف الثقافي واللغوي، "لذلك فإن عملية الترجمة هي بمثابة اكتشاف للآخر للغة وثقافته وهي بسط لثنايا أفكاره وتفسيرها وتأويلها وإعادة صياغتها" (الخطابي، 2010، صفحة 105) فإذا كانت الترجمة منذ القديم هي النافذة الأولى للتأثير المتبادل بين الثقافات فإنها مازالت إلى يومنا هذا عنصرا فاعلا ووسيلة من وسائل التواصل والتحاور الحضاري والثقافي وعملية مهمة في إنجاح فعل المثقفة، حيث تقول سوزان بسنت "مازالت الترجمة قوة تشكيل رئيسية في تطور الثقافة العالمية" (فيدوح، 2009، صفحة 83) فمن خلال الترجمة تُوسَّع الثقافة مجالات إبداعها وفي الوقت ذاته تنفتح على غيرها من الثقافات، حيث "تشكل جسرا لمد الأواصر وإزالة الحواجز بين الأفراد والجماعات" (فيدوح، 2009، صفحة 84) وكل هذا من خلال فعلي التأثير والتأثر،

فهي تتجلى وتتكشف في إطار عالمي وكوني باعتبارها "الوسيلة الفاعلة والأساس في نقل سبل التكافؤ الحضاري والحوار بين الأمم فتخلق ما يسمى بالثقافة" (فيدوح، 2009، صفحة 85) التي يقصد بها التفاعل بين الثقافات والاستيعاب الثقافي بين الشعوب، وتبقى أداة هذه الثقافة هي الترجمة، وهذا ما جعل فرانسوا ويلمارت francoise wuilmart يعتبر أن رهان الترجمة هو نقل السياق الثقافي قبل نقل اللغة ومهمة المترجم بالتالي ليس فقط نقل اللغة بل نقل الثقافة أيضا.

هذا ما جعلها تحظى "في الألفية الثالثة بمكانة متميزة في حقل الدراسات المعرفية في بعدها التواصلية، نظرا إلى الرغبة الملحة بين الأمم في تقارب الثقافات، ولعل دعامة -حوار الحضارات - هي إحدى الممارسات المهمة لتفعيل أشكال التواصل" (فيدوح، 2009، صفحة 120) إذ أخذت عملية الاتصال شكلا مميزا في الألفية الثالثة تقوم بالأساس على العلاقة بين الأمم، إذ "إننا حين ننظر إلى الترجمة بوصفها جسرا مهما في ربط التواصل بين الثقافات والأمم - فلأننا نعدّها - أيضا - الوسيلة التي تُسهّم في تطور المعارف وإعادة تأهيلها، وتوجيهها ضمن إطار تنامي عملية التأثير والاعتراف بالآخر" لأن الترجمة هي عملية تواصلية بين الذات والآخر لتمكين مقاربة حوار الحضارات والثقافات.

فالترجمة هي مصدر مهم من مصادر الحوار الثقافي ومصدر من مصادر الوعي الثقافي والمعرفي والتلاقح ما بين الثقافات الإنسانية والتعرف على ما أنجزته الحضارات بالشكل الذي يجعل الترجمة هي العنصر الفاعل الذي يقرب هذه الثقافات المتنوعة والمتعددة، ولا يمكن لأي ثقافة إنسانية أن تعزز مشروعها الثقافي إن لم تكن متفاعلة ومتحاورّة مع ثقافات أخرى، لذلك حظيت الترجمة بهذه الأهمية وهذا باعث على أن ندرك إن الترجمة تحتاج إلى مؤسسات وبرامج واليات وكفاءات وتحتاج إلى استعدادات بالشكل الذي يجعل الترجمة في حالة تجديد فانك لا يمكن أن تترجم الماضي فقط فعليك أن تكون متفاعل بالشكل الذي يترجم الحاضر، والترجمة هي الشكل الآخر لديمومة الحياة الثقافية.

مع هذا وإن كانت الترجمة قد ساهمت في إنشاء وتعزيز الحوار بين الثقافات، "فإنها كانت أيضا مصدرا للنزاعات إذ يمكن للمترجم أن يقرب الثقافات كما يمكن له أن يعمق الهوة بينها" (قاسم، 2010-2011، صفحة 71) وهنا إشارة إلى ذاتية المترجم خاصة إذا مارس المترجم ذاتيته بشكل مفرط، وهي ظاهرة قد نجدها وبارزة بوضوح في عملية الترجمة وبالتالي قد تؤدي الترجمة رغم كل إيجابياتها إلى مسالة الغزو الثقافي والاستيلاء وهذا من سلبيات الترجمة، لكن يجب أن نؤكد ونهتم بالترجمة التي تعمل على نقل المضامين الثقافية المتنوعة من بيئة إلى أخرى دون ممارسة لأي استيلاء أو غزو أو سيطرة ثقافة على أخرى، أي التي تؤكد على الآخر وتحترم خصوصياته الثقافية المختلفة وهذا بغية المحافظة على هوية الذات، باعتبار أن غالبا ما يؤدي الانفتاح بين المجتمعات إلى إثراء التبادل الثقافي، ولكنه في المقابل يؤدي إلى انطواءات في الهوية، وعليه يتوجب معرفة ثقافة الآخر المتنوعة والاستفادة منها دون أي انغماس للهوية في ثقافة الآخر أو تفريط فيها.

6. خاتمة:

من خلال هذه الدراسة يمكن القول أن الترجمة ليست مجرد عملية لغوية فقط، بل هي مشروع حضاري مبني على التفاعل والاعتراف بالآخر، وأثبت لنا التاريخ أن الأمم التي ازدهرت كانت تلك الأمم التي انفتحت على الثقافات الأخرى ومارست فعل الترجمة وشجعت عليه، فاستطاعت أن تمارس فعل المثاقفة من خلال فعل الترجمة وفي الوقت ذاته المحافظة على هويتها الخاصة بها.

أما عن آفاق الترجمة في الوطن العربي فنعتقد أن الأمر يستلزم رؤية ثقافية واستراتيجية مؤسسية تعطي لهذا المجال مكانته الحقيقية، وهي العملية التي يظل تطويرها مرهونا بجهود المترجمين والباحثين والمؤسسات الثقافية، والأکید أن لدينا ثلة من المترجمين الأكفاء، يبقى المطلوب هو تجميع طاقاتهم وتشجيعها، والاعتراف الحقيقي الداعم

بوضع الترجمة وأهميتها، والإقرار بأن من دونها لا جدوى من الحديث عن الانفتاح والحوار المتبادل مع العالم الخارجي، فالترجمة تبقى وسيلة مهمة في التبادل والحوار والتواصل الثقافي بين الشعوب والأفراد والمجتمعات.

5. قائمة المراجع:

1. Abu Ya'rub al-Marzūqī. (2001). Things from Criticism and Translation. Beirut: Jadawil Publishing and Distribution.
2. Aḥmad Ibrāhīm. (2009). The Secret of Translation and the Anxiety of Interpretation. In Translation and Interpretation: Approaches to Mechanisms of Understanding and Exegesis (Vol. 1). Algiers: Al-Ikhtilāf Publications.
3. Antoine Berman. (2010). Translation and the Letter, or the Place of the Beyond. Translated by 'Izz al-Dīn al-Khaṭṭābī (1st ed.). Beirut: Arab Organization for Translation.
4. Khālīd Ḥarbī. (2010/2011). Schools of Translation: A Bridge for Muslims to the Sciences of Other Nations. Al-'Arabiyya wa-al-Tarjama [Al-Arabiyya and Translation Journal], Arab Organization for Translation, Beirut, issues 5/6.
5. Sālīm al-ʿIsī. (1999). Translation in the Service of Popular Culture: Its History and Development. [Place n.p.]: Publications of the Union of Arab Writers.
6. 'Izz al-Dīn al-Khaṭṭābī. (2010). Translation and Interpretation. Al-'Arabiyya wa-al-Tarjama [Al-Arabiyya and Translation Journal], Arab Organization for Translation; distributed by Centre for Arab Unity Studies, issue 4.
7. Fāḍīl Luqmān Jatkar. (2010). The Fate of Translation between Practical Practices and Hypothetical Theorizations. Al-'Arabiyya wa-al-Tarjama [Al-Arabiyya and Translation Journal], 2(4).

8. Fā'iza Qāsim. (2010–2011). Translation as the Revelation of the Other Self in the Space of Languages and Cultures. *Al-‘Arabiyya wa-al-Tarjama* [Al-Arabiyya and Translation Journal], Arab Organization for Translation, issues 5/6.
9. Na‘īma Ḥāj ‘Abd al-Raḥmān & al-Azhari Riyhānī. (n.d.). An Interview with Muhammad ‘Ābid al-Jābirī: The Other — Discourses of Dialogue and Possibilities of Encounter. *Ays Journal*, Al-Ghīriyya, issue 2. (Published by Dar al-Siḥāfa [House of the Press], editor)
10. Yāsīn Fīdūḥ. (2009). The Problematic of Translation in Comparative Literature (1st ed.). Damascus: Dar Safahat for Distribution and Publishing.